الثقافة في العلم الأنثروبولوجي

الثقافة كمفهوم:

يعتبر مفهوم الثقافة هو المكون الرئيس واللبنة الأساسية التي تقوم عليها الأنثروبولوجيا بكافه تخصصاتها ومجالاتها. ولا يكاد أحد يختلف على أن مفهوم الثقافة هو المفهوم الذي تأسست عليه الأنثروبولوجيا وانطلقت فرضياتها وإطارها النظري العام منه. فالثقافة مفهوم عام وتعددت تعاريفه بين الأنثروبولوجيين والمهتمين.

ولقد قام العديد من الباحثين في مجال الانثروبولوجيا بتحديد تعريف خاص للثقافة كل من منطلقه الفكري وإدراكه لجوانب وأبعاد هذا المفهوم. ولقد قام في هذا الاتجاه كل من كوربير وكلوجهون (1952) Kroeber and Kluchohn بجمع 164 تعريف لمصطلح الثقافة شاملة أبعاد ومضامين وتعبيرات متعددة لهذا المفهوم أو المصطلح.

ولعل من أشهر التعاريف إطلاقاً في مجال الأنثروبولوجيا، وما يعتبره الكثير أيضاً بأنه من أكثر المفاهيم شمولية وتحديداً لمفهوم الثقافة هو تعريف ادوارد تايلور الشهير والذي أشار إليه في كتابه الثقافة البدائية، والذي محدداً هذا المفهوم بأنه هو: "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والأعراف، وأي قدرات أو عادات أخرى يكتسبها الإنسان بحكم كونه عضواً في المجتمع".

ولعل هذا التعريف وما اشتملته الفقرة الأخيرة تحديداً بإدخال أي قدرات أو يكتسبها الفرد داخل نطاق المجتمع الذي هو في الأساس عضواً فيه، يجعل من هذا المفهوم متسعاً وشاملاً لكل ما نمارسه ونقوم به ونسلكه في حياتنا اليومية .

فالثقافة عند تايلور كلٌ متكامل من الممارسات الحياتية، ومن نظم المعتقدات والأفكار والذي احتواه بمضمونه العام الشامل للعناصر الثقافية بشقيها المادي واللامادي. وقد لا نكون مبالغين إذا أشرنا إلى أن التعريفات الأخرى التي قدمها الآخرون لا تأتي بإضافة جديدة لهذا المفهوم. فعلى الرغم من المحاولات الجادة في كثير من الأعمال الانثروبولوجية التي حاولت أن تدرس الثقافة في المجتمعات المختلفة، إلا أنها لم تخرج عن تعريف عام وشامل للثقافة بمثل ما أتي به تايلور.

فمن تعريفات المهتمين والمختصين، يعرف لينتن (1945) Linton علي سبيل المثال الثقافة علي أنها " السلوكيات المتعلمة، والنتائج المستخلصة للسلوك من العناصر العامة المشتركة والمنقولة من أعضاء المجتمع".

من هنا يحدد أن الثقافة عبارة عن سلوك متعلم، وكذلك سلوك مستمد أساساً من تفاعل المجتمع مع بعضه بعض والذي يؤثر علي سلوك الفرد. فقد ربط لينتن الثقافة بجوانب الشخصية والسلوك الإنساني الذي يتأثر بالآخرين.

ويعرف بارسون (1949) Parson الثقافة علي أنها تتكون من أنماط السلوك، والمنتجات الإنسانية التي يتوارثها الإنسان وتنتقل من جيل إلي آخر بصرف النظر عن الجينات البيولوجية".

فهو يشير إلي قضية التناقل والتوريث الاجتماعي لهذا المفهوم من الآباء إلي الأبناء. فهي عملية مستمرة وتنتقل عبر الأجيال دون أن يكون للبيولوجيا أو الجينات دخل فيها .

وقد ربط مالينوفسكي مفهوم الثقافة بالاحتياج.

فقد أشار للثقافة علي أنها استجابات المجتمع للاحتياجات الأساسية للأفراد، وربط مفهوم الثقافة بالمجتمع انطلاقاً من تصوره النظري حول الوظيفية الاجتماعية وكيف أن المجتمع بمؤسساته المتعددة تؤدي وظيفة للفرد وتسد احتياجاته.

ويرى عميد الانثرولولوجين الأمريكيين فرانز بواز أن مفهوم الثقافة والذي أشار إليه في موسوعة العلوم الاجتماعية بأنه " مركب يشمل كافة العادات الاجتماعية للمجتمع، وجميع ردود الأفعال الشخصية المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها الإنسان بالإضافة إلي كل منتجات الأنشطة الإنسانية التي تتحد فيها العادات

ففي هذا التعريف الذي جاء متأخراً جداً عن تعريف تايلور الأساسي للثقافة، نجده لا يخرج عن ما قام بالإشارة إليه وما حدده في كتابة الثقافة البدائية. فتحدث بواز عن كل يشمل العادات والتقاليد، والأنشطة التي يقوم بها الإنسان من خلال كونه يعيش في المجتمع .

فهناك مجموعة متعددة من التعريفات الخاصة بالثقافة كما سبقت الإشارة. وهناك صعوبة في حصر هذه التعاريف، ولكن بشكل عام، فإن جميع هذه التعاريف لا تخرج عن كون أن الثقافة هي مكونات من السلوك الإنساني، وانتماء هذا الإنسان إلي مكونات معيشية يدخل ضمن إطار المجتمع الذي تسوده مجموعة من الأنظمة الاجتماعية المحددة لهذا السلوك. وهناك أيضاً

مجموعة من المعطيات المادية التي تحدد السلوك، وتعتبر ركيزة من ركائز الثقافة، وهذا كله يجعلنا نتساءل عن ما هي أبرز عناصر الثقافة الإنسانية. وما هي المكونات الرئيسة لها .

عناصر الثقافة :

تقسم الثقافة إلي نوعين من العناصر: عناصر مادية، وعناصر لا مادية. ويقصد بالعناصر المادية هي تلك العناصر التي تأخذ الطابع المادي المحسوس، أما العناصر اللامادية فهي تلك التي تتعلق بالأمور والأشياء غير الملموسة والتي تدخل في نطاق المعتقدات، والمعرفة، والأفكار، والقيم، والمعايير وغيرها. فمن خلال عملية التعاريف التي تم تقديمها، فإنه يمكن النظر إلي أن للثقافة مجموعة من العناصر. فهذه التعريفات قد قدمت إطاراً عاماً لشرح مفهوم الثقافة. والذي يمكن أن تحتويه مجموعة من العناصر. ويمكن تقسيم هذه العناصر بشكل أكثر تفصيلاً كما أشار إليها باسيركو وبولن (Basirico & Bolin, 2009) بالآتي :

أولاً، العناصر اللامادية : Non-Material Elements

وتنقسم العناصر اللامادية للثقافة من الآتي :

- الرموز: وهي الأشياء أو الأحداث التي تحمل معاني أخرى غير التي تبدو عليه أما لأنها متفقة أو مرتبطة معها، أو متشابهة بها .
- القيم: وهي ردود فعل محددة تجاه خبرات مكتسبة، وهي التي تعبر عن الأشياء والمعاني إن كانت إيجابية أم لا، أو أخلاقية من عدمه. وتعتبر هذه القيم هي مثل عليا يتطلع إليها الإنسان بغض النظر عن تحقيقها من عدمه .
- المعتقدات: وهي أفكار الناس التي يحملونها حول بعض القضايا التي يرونها بكونها حقائق أو غير ذلك .
- المعايير: وهي القواعد المشتركة التي تحدد للفرد كيف يتصرف في ظروف محددة .
- العواطف: وهي ردود فعل داخلية علي التجارب التي يمر بها الإنسان. فالمجتمعات تعلم أعضائها بعض التعبيرات العاطفية لأحداث محددة عن طريق التنشئة الاجتماعية، وكذلك للتعبير عن هذه العواطف بطرق مختلفة ترتبط بالحدث أو الموقف الذي يفرض نفسه .
- الاتجاهات: وهي موقف الفرد من الأشياء سواء يحب أو يكره، أو تفضيل عام لتجارب محددة علي غيرها .

- القوانين: وهي تلك القواعد التي يتم تحديدها من قبل السلطة السياسية والتي تشمل علي المبادئ العامة التي يجب علي الأفراد إتباعها .
- التصورات: وهي التفسيرات للظواهر والقضايا الثقافية، والتي من الممكن أن تختلف من فرد لآخر وذلك باختلاف تجارب الإنسان وخبراته التي يكتسبها من المجتمع الذي ينتمي إليه .
- التطلعات: وهي الطموح والأهداف التي تحمل قيمة ورغبة في تحقيقها داخل المجتمع .
- المعارف التكنولوجية: وهي معارف الإنسان وخبراته الحياتية من تقنيات وأساليب المعيشة كالفرد الذي يعرف الطرق التي تجعله يبقي علي قيد الحياة، أو الطرق التي تجعله يكتسب مجموعة من السعرات الحرارية حتى يستطيع الحياة. وكذلك قدرته – أي الإنسان – على السيطرة والتكيف مع البيئة الثقافية والطبيعة المحيطة به .

ثانياً، العناصر المادية Material Elements:

- الصناعات: وهي ترتبط بكافة المصنوعات والمنتجات الإنسانية المادية للثقافة سواء أكانت في الماضي أو الحاضر .
- التكنولوجيا: وهي كافة التقنيات، والوسائل، والأساليب التي استخدمها الإنسان من مواد حتى يستطيع من خلالها السيطرة مع البيئة الثقافية والطبيعة والتكيف معها .

وقد يكون هناك تداخل في كثير من هذه العناصر سواء المادية أو غير المادية، إلا أنها قد يكون تميز واضح يحدد عناصر الثقافة بشكل عام وما تحتويه هذه الثقافة من عناصر ومكونات.

فالتداخل علي سبيل المثال قد يكون بين العناصر المادية بين المصنوعات مثلاً والتكنولوجيا. فتعد التكنولوجيا من المنتجات الإنسانية وهي التي صنعها الإنسان، ولكن ليس بالضرورة أن تكون المنتجات الإنسانية هي بالضرورة تكنولوجيا أو تقنيات. وبالنسبة للعناصر غير المادية أيضاً، فقد يكون هناك تداخلاً بين الاتجاهات والقانون، وكذلك بين التصورات والتطلعات، أو بين القيم والمعايير، ولكن في النهاية لكل عنصر من هذه العناصر بعض الخصائص العامة التي تحدد إطاره في مجال تشكيل الثقافة الإنسانية.

فالعناصر المادية هي تلك العناصر التي تحتوي علي كافة المكونات الملموسة والمادية التي يتم صناعتها وإعدادها بواسطة الإنسان ويعطيها معني محدد. مثل تلك المصنوعات أو المنتجات

الخاصة به مثل السيارة، والملبس، والمسكن، وجهاز الحاسب الآلي، والغذاء وغيرها. ولا شك أن الشيء المصنوع أو المبتكر أو المنتج المادي يصبح جزءً من الثقافة عندما يعطيه الإنسان معني واستخدام محدد. فالحجر علي سبيل المثال ليس من الثقافة، ولكن عندما يقوم الفرد باستخدام هذا الحجر ونحته وتهذيبه واستخدامه كسلاح أو بناء منزل فإنه يصبح جزءً من الثقافة، لأنه قد أعطاه معنى محدد. والعناصر اللامادية أيضاً داخل الثقافة التي تتشكل من خلال الأفكار والسلوك الإنساني والتي يتعلمها الإنسان من الثقافة التي يعيش فيها، فهي تشمل النظم الاجتماعية جميعها التي يتفاعل معها الإنسان مثل النظام السياسي، والاقتصادي، ونظام القرابة والعائلة، والنظام الديني، واللغوي ونظام المعتقدات.

فكل ثقافة تعلم وتنقل لأعضائها مجموعة من القيم والعادات السلوكية من خلال ما يسمي بالأنظمة الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية المتعددة داخل المجتمع. فالمؤسسة الاجتماعية باختلاف أشكالها هي التي يتعلم الفرد العناصر الثقافية من خلالها. وعند الحديث عن المؤسسة institution لابد من تميزها عن ما يسمى بالتنظيم .organization فالتنظيم من الممكن يخدم مجموعة قليلة من الأفراد في دائرة اجتماعية ضيقة ومحددة، بينما المؤسسة هي المصطلح الأشمل والأوسع والتي تخدم المجتمع كله.

فمؤسسة الأسرة التي يتعلم فيها الفرد أولى أساسيات الحياة، فهي – أي مؤسسة الأسرة – تعلمه المعايير والمعتقدات، وكيف يتفاعل مع الآخرين. فهي تنقل له عناصر ثقافية خاصة من العادات والقواعد، والمحرمات والأفكار بالإضافة إلي توفير احتياجاته المادية الأساسية في ظل انتماءه لهذه المؤسسة. وكذلك الحال بالنسبة لمؤسسة التعليم والتربية التي تعلم الأبناء وتنقل لهم قيم المجتمع بشكل رسمي ومن خلال هذه الطرق الرسمية، فهم يكتسبون المعلومات والمعرفة لحل مشكلاتهم وكيف يصبحون قادرين علي أداء دورهم المستقبلي. فمؤسسة التعليم هي المدرسة، وهي الفصل الدراسي، والذي يأخذ الطبيعة المادية. هذا بالإضافة إلي المؤسسة الاقتصادية والتي تشمل العناصر المادية وغير المادية أيضاً. فهي كسب المال والمادة، وكيف يكّون الإنسان شعوره نحو الغني والرفاهية. وكذلك الحال بالنسبة للمؤسسة الدينية والتي تجعل من الإنسان يعتقد ويؤمن ببعض القضايا والأفكار، وكذلك الحال يمارس بعض الطقوس والشعائر في مثلاً المساجد أو المعابد أو الكنائس وغيرها من المؤسسات الأخرى داخل المجتمع.

فهي مزيج من العناصر المادية واللامادية في هذه المؤسسات. والعناصر المادية قد تكون لها انعكاسات لا مادية. فممارسة الشعائر والطقوس الدينية الحركية مثلاً لها بعض الأفكار والقيم والمعتقدات. والمسجد والكنيسة والمعبد أيضاً لهم جوانب رمزية فكرية وعقائدية في حياة الفرد. فهي تشكل تعبيرات فكرية قيمية لعناصر مادية محسوسة وملموسة. فكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية يضم مجموعة من العناصر المادية وغير المادية، ولكنها في طبيعتها –أي هذه العناصر– قد تكون مختلفة من ثقافة إلي أخرى .

ولا بد من الإشارة إلي أن العناصر الثقافية المادية وغير المادية قابلة للتغير والتبدل وكذلك الاختفاء في بعض الوقت. فهي تخضع لعمليات التغير الاجتماعي والثقافي وعمليات التحديث. فهناك العديد من العناصر الثقافية تخضع لعملية تغير، وهذا التغير هو في النهاية الذي يجعل من المجتمع يمر بعملية التطور. فالتطور والتقدم في المجتمع ما هو في النهاية إلي تطور وتقدم في العناصر الثقافية سواء أكانت مادية أو غير مادية. فمن طبيعة المجتمعات التطور، إلا إذا واجهت بعض الكوارث والانهيار التام مثل ما ذلك الذي الحضارات الإنسانية القديمة التي باءت واختفت معها العديد من عناصرها. ولكن بشكل عام العناصر الثقافية هي المكون لتطور المجتمع. ويمكن قياس ذلك علي عملية التقدم التكنولوجي الكبير الذي شهده العالم. هذا بالإضافة إلي الأفكار والآراء التي تتوافق مع هذه المشكلات والتقنيات .

ولا بد من الإشارة أيضاً إلي أن العناصر المادية هي أسرع نسبياً في التغير من العناصر اللامادية. فالتكنولوجيا، والمنتجات الإنسانية والصناعات وكل ما يتعلق بالملبس والمسكن ووسائل النقل وغيرها تتطور بشكل أسرع من العناصر اللامادية والمتعلقة بالأفكار والآراء والمعتقدات. في النظام الواحد أو المؤسسة الواحدة وأن التغير في المعطيات المادية يسير بشكل أسرع من اللامادية. ونأخذ مثالاً على أحد الأنظمة الاجتماعية في المجتمع المحلي، والمتمثل في نظام الزواج وما حدث له من تغير وتبدل. فما هو ممارس في السابق وموجود من عناصر ماديه تغير بشكل كبير، وبعض منها قد أختفي تماماً ولم يعد له ظهور مثل تلك العناصر المادية الخاص بالاحتفالات نفسها، ومكان وطريقة إقامة العرس، والليالي المصاحبة لها من ليلة الحناء، والطقوس التي يتم مزاولتها في تلك الليلة. فنجد أن كثير منها قد إصابة تغير كبير، وأختفي جزء آخر منها. بينما ظلت المعتقدات تتغير بشكل أقل كثيراً عن تلك المرتبطة بالجوانب المادية. فلا زال مثلاً نمط الزواج الداخلي أو الزواج من الأقارب هو الممارس بشكل كبير. صحيح أنه قد أصاب تغير، ولكن ليس بالصورة نفسها الذي أصابه الجوانب

المادية. فالمعتقدات نحو هذا الزواج لا زالت شائعة وموجودة ومنتشرة، وكذلك الزواج من الطبقة الاجتماعية، ونظام أو قضية العفة في الزواج وخاصة للمرأة، والتدين، وزواج ابن العم وغيرها من القضايا التي تعتبر أقل تغيراً من الجوانب المادية في نظام الزواج داخل المجتمع. وبشكل عام فالعناصر المادية هي أسرع في طريقها للتغير من العناصر اللامادية في المجتمعات الإنسانية.

الثقافة والمجتمع:

بينما تختص الثقافة بالإنسان، فإن مفهوم المجتمع يشمل الكائنات الحية من الحيوانات أيضاً. فقطيع الغزلان، ومجاميع البابون، وحزم الذئاب مثلاً يشكلون مجتمعات حيوانية. فالذئاب مثلاَ تميز بين الكبير والصغير، وتميز بين الذكر والأنثى، وكذلك بين الأب والأم والأبناء. فكل مجموعة تتميز بسلوك مختلف ومحدد. وكذلك الحال بالنسبة لبقية المخلوقات من الحشرات مثلاً كالنمل، وكذلك النحل، والتي قد يكون لها مجتمعات أشد تعقيداً من مجتمع الذئاب أو غيرها، كالدور الذي تقوم به الملكة مثلاً والعمال وبقية المجموعة العاملة. وبشكل عام يشترك الإنسان مع الكائنات الحيوانية في معيشتهم في وجود مجتمع، ولكن يختلفون في طبيعة هذا المجتمع وتعقيده. فالإنسان يحمل ثقافة، ذلك الوعاء من عملية التعلم والتنشئة. فالمجتمع الإنساني ليس أكثر تعقيداً بعلاقاته وطبيعته فقط أنما أيضاً يحمل الثقافة التي لا تحملها المخلوقات الأخرى

فالمجتمع الإنساني يتميز بثقافة والتي لا توجد عند بقية المخلوقات الأخرى. فهي العنصر الأساسي الذي يميز المجتمع الإنساني عن المجتمعات الحيوانية. وهذه الثقافة تمثلت بالعناصر المادية واللامادية التي سبق الحديث عنها. فالثقافة هي المكون الأساسي للمجتمع الإنساني .

ويضع رسمان و روبل (1989) Rosman & Rubel مجموعة من الخصائص المميزة للمجتمع الإنساني والذي يرتبط بشكل مباشر بالثقافة ويحدد هذه الخصائص الاجتماعية بالآتي:

- ❖ الوضع والدور الاجتماعي :Social Status and Role

ففي المجتمعات الإنسانية لا يتم التفريق بين الذكور والإناث، وبين المستويات أو الشرائح العمرية المختلفة فقط، أنما هناك اختلاف أيضاً بين هذه الفئات في السلوك وذلك ارتباطاً بالوضع أو الحالة الاجتماعية لكل منهم في المجتمع. ففي المجتمعات الإنسانية الأفراد يمارسون أدوارهم

كآباء، وكأمهات وكرؤساء وكمرؤوسين، وكرجال دين، ومدراء وغيرها. فهذا السلوك مرتبط مع وضع اجتماعي محدد داخل المجتمع يعرف بالدور الاجتماعي. فلكل منهم دور محدد حسب حالته أو وضعه الاجتماعي. ومن الطبيعي أن المجتمعات تختلف في الأدوار الاجتماعية .

❖ العلاقات الاجتماعية :Social Relationship

وهو مستوى وطبيعية التفاعل بين الأشخاص وما يحملونه من وضع اجتماعي داخل المجتمع. فعندما يقوم أحد القادة علي سبيل المثال أو المدراء أو الرؤساء ويحضر حفل أو لقاء أو اجتماع قد تم إعداده وتحضيره بواسطة قائد، أو رئيس، أو مدير آخر وبحضور مرؤوسيه أو تابعية، فهنا تولدت علاقة بين مجموعتين من الناس قد تختلفان في الطبيعة أو الفكر أو الاتجاه أو نوع العمل أو غير ذلك من الاختلافات. فيحدث نوع من العلاقات الاجتماعية الخاصة بالعمل. وعندما يقوم هذا الرئيس أو القائد أو المدير بمخاطبة مرؤوسيه أو تابعية، فإن ذلك ينبع من علاقات اجتماعية حددت طبيعية التفاعل بين الرئيس ومرؤوسيه في إطار خاص. فالعلاقات الاجتماعية يمكن أن تحدث بين اثنين أو أكثر لكل منهم دوره وموضعه الاجتماعي داخل المجتمع .

❖ البناء الاجتماعي :Social Structure

ولعل الأنماط المحددة من العلاقات الاجتماعية التي تميز المجتمع يشار إليها بالبناء الاجتماعي. وهي تلك التي تحتوي علي الجماعات الاجتماعية التي يميزها ويحددها المجتمع والتي يمكن أن يكون أساسها العائلة أو الأسرة، القرابة، التشابه السكني، أو ذات اهتمام مشترك. وتتميز هذه الجماعات بالاستمرارية وترتبط مع بعضها بعض في شبكة من الأدوار الاجتماعية التي تشكل هذا البناء الاجتماعي.

❖ التبادل – التفاعل:Exchange

ويقصد بالتبادل هي عملية التفاعل بين الأفراد. فهذا التفاعل من الممكن أن يكون تفاعلاً لفظياً، أو تبادل في الأشياء أو السلع أو الخدمات أو حتى التفاعل السلوكي بين الأفراد مثل تبادل الاحترام والتقدير. فيقوم الباحثين في النظر في عملية التبادل كأنه بين الأفراد للكشف عن بعض الأدوار الاجتماعية داخل المجتمع. فهي تساعد بشكل كبير لمعرفه هذه الأدوار داخل النظام الاجتماعي.

ولعل الثقافة هي المحدد الرئيسي لهذه المحاور من الاختلافات بين المجتمع الإنساني والحيواني. فالثقافة هي التي تحدد الأدوار الاجتماعية، ووضع الفرد داخل مجتمعه، ومكانته الشخصية بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى. فهي عبارة عن علاقات اجتماعية تقوم داخل المجتمع وتتحدد من خلال الثقافة أي من خلال التعليم الذي يتم تناقله عبر الأجيال. وتشكل الثقافة ومكوناتها البناء الاجتماعي للمجتمع بأدوارها وعلاقاتها وطرق تفاعلها.

فنجد أن لكل مجتمع من المجتمعات مجموعة من المحددات والعناصر الثقافية التي تميزه عن المجتمع الآخر. فالبناء الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، وطبيعتها، وطريقة التفاعل مع الآخرين، والأدوار، والمكان، والوضع الاجتماعي للأفراد، فإنها جميعها تتغير وتختلف من مجتمع لأخر. ولهذا نجد هناك تصنيفات لهذه المجتمعات. فاختلاف هذه الأبعاد، هو ما يميز الاختلاف بين المجتمعات الإنسانية على مر عصورها وتاريخها، وباختلافها وتنوعها المعاصر. فنجد تسميات مثل المجتمع الشرقي، والمجتمع الغربي، أو المجتمع المعقد، أو المجتمع الصناعي، أو المجتمع البدائي أو المجتمع الزراعي، أو غيرها من هذه التسميات. فهي ترجع في النهاية إلي طبيعة الاختلافات في الأدوار، والوضع الاجتماعي للأفراد، والعلاقات الاجتماعية، وطبيعة التفاعل، وفي النهاية النظام الاجتماعي العام المكون لهذا المجتمع .

وهذا بطبيعة الحال تقودنا إلي التميز أيضاً حتى في الثقافة الواحدة. فتختلف الثقافة بعناصرها أيضاً داخل المجتمع الواحد وهي تلك التي تسمي في النهاية الثقافات الفرعية. ففي المجتمعات الإنسانية تختلف الأدوار والعلاقات وطبيعة التفاعل والبناء الاجتماعي بين ثقافة عن أخرى. فمجموعة من الأفراد يتميزون بالتشابه في بينهم وبعضهم بعض في هذه الأدوار والعلاقات والبناء الاجتماعي ويختلفون عن مجموعة سكانية أخرى داخل محيط المجتمع أو الإقليم نفسه. فيشكلون بذلك ثقافة فرعية داخل المجتمع تختلف عن جماعة سكانية أخرى. ولكنهم في النهاية، وفي أطار الكلية فهم يعتبرون أو يشكلون ثقافة المجتمع الذي ينتمون إليه. فداخل المجتمع الواحد هناك عده ثقافات، وهذه الثقافات تتمايز عن بعضها بعض، وهي في النهاية تشكل المجتمع الأساسي وقد يكون من أوضح الأمثلة الموجودة علي وجود الثقافات الفرعية المتمايزة هي الموجودة داخل المجتمع الأمريكي، والتي تختلف فيه المجموعات السكانية وفقاً للدين، والعرق، والمناطق الجغرافية التي كانوا ينتمون إليها قبل هجرتهم، والتي تحددت بشكل واضح في ثقافات خاصة تسمي ثقافة الأمريكان السود، والأمريكان الأسيويين، والأمريكان الأصليين، والأمريكان الهنود الأسيويين، والأمريكان من الأصل الاسباني، والأمريكان العرب. وفي تصيف

آخر، فهناك الأمريكان المسيحيين، والأمريكان اليهود، والأمريكان المسلمين، والأمريكان البوذيين وغيرهم. فهي أنماط ثقافية مختلفة داخل المجتمع، وتختلف طبيعة العلاقات الاجتماعية والتفاعل والأدوار والبناء الاجتماعي لكل ثقافة علي حده، ولكنهم في النهاية هم يشكلون المجتمع الأمريكي. وكذلك الحال وكما يلحظ مجتمعاتنا المحلية من وجود العديد من الثقافات الفرعية والتي تشكل في النهاية نسيج المجتمع وتحدد قالبه العام. فالمجتمع في النهاية ما هو إلا مجموعة في العلاقات التي تحدث بين الناس، والتي يعبر عنها مكانتهم وأدوارهم في ظل البناء الاجتماعي الذي يعيشون فيه، والذي يختلف عن المجتمعات الأخرى، ويضم تمايزاً أيضاً بين أركانه وفي محتواه.

طبيعة الثقافة:

يعتبر مفهوم الثقافة من أبرز المفاهيم التي ترتكز عليها الأنثروبولوجيا في تخصصاتها ودراساتها المتعددة. فتعتبر الثقافة – كما سبقت الإشارة – محور دراسة الأنثروبولوجيا، وهي الكيان الأساسي لها بكافة تخصصاتها ومجالاتها الفرعية.

فعند دراسة تاريخ الإنسان وماضيه، والبحث عن البقايا الأثرية مثلا عن طريق الأركيولوجيا، فذلك يعني دراسة هذه البقايا واكتشافها للعمل على تحديد ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان خلال فترة زمنية محددة من حياته. فالأركيولوجي يكتشف ويبحث عن البقايا الحجرية بهدف الكشف عن ثقافة الإنسان وكيف كان يصنع الأدوات، وكيف وأين كان يعيش، ويكشف عن طرق حياته وتعامله مع البيئة المحيطة والتي تعتبر كشفا عن ثقافته. فالموضوع هنا ذو صلة بالثقافة. وعندما يبحث الأنثروبولوجي الفيزيقي في التنوع البشري، والتطورات والاختلافات الفيزيقية للنماذج البشرية، فإنه هنا أيضا يبحث عن أثر الثقافة في إحداث مثل هذه التغيرات البيولوجية والفيزيقية من خلال الكشف عن السلوك الإنساني، والممارسات الحياتية اليومية، وكذلك يبحث عن كيفية المعيشة في ظروف بيئية محددة في العصور القديمة وما هي ثقافته وكيف يتفاعل مع البيئة المحيطة وما هو سلوكه. فالأنثروبولجي الفيزيقي يركز على الثقافة بحكم كونها أساسا علميا ينطلق من خلاله. وعند البحث عن اللغة والمدلولات والتعبيرات اللغوية، فإن اللأنثروبولجي يبحث أيضا يبحث عن أثر الثقافة في التأثير على البناء اللغوي. فاللغة هي أحد

ابرز عناصر الثقافة. فالثقافة هي ما يميز تفرعات ومجالات الأنثروبولوجيا وتجعلها تدخل ضمن نطاقها.

ويعكس نشوء مفهوم الثقافة حاجة الأنثروبولوجيين لمصطلح ملائم من شأنه أن يصف السلوكيات الإنسانية اليومية، والتي بلغت درجة عالية من التطور عند الإنسان، والتي ميزته، في الوقت نفسه، عن الكائنات الأخرى. فبينما تتميز الكائنات الحية جميعها بأن النوع الواحد منها يتبع أساسا السلوكيات نفسها، فإن الإنسان يختلف بتنوعه الملحوظ في الأنماط السلوكية التي يقوم بها في حياته اليومية.

ويستخدم الأنثروبولوجيين مصطلح "السلوك"، للإشارة إلى أي نشاط يؤديه الإنسان. فعلى الرغم من أن السلوك يُعرف على أنه تفاعل مع المعطيات البيئية، إلا أن مصطلح السلوك من الممكن أن يأخذ اتجاها آخر عند التعريف. فيعرف السلوك بيولوجيا كما يشير ديسنبري Dusenbery (2009) على أنه أي عمل للكائن الحي الذي يمكن أن يحدث مرتبط بالمحيط البيئي الذي يعيش فيه. فهو – أي السلوك – يعتبر من مخرجات أو نتيجة للبيئة النى يعيش فيها الكائن الحي.

ونلاحظ أن هذا التعريف البيولوجي الذي حدده ديسنبري لم يميز بين الإنسان، وبقية الكائنات الحية. فالسلوك هو ردة فعل لمعطيات البيئة المحيطة للكائن العضوي. ولذلك، فإن اسلوك الإنساني مرتبط بالمحيط البيئي الذي يعيش فيه الإنسان والذي من خلاله تتشكل ثقافتة. فالبيئة الزراعية، أو الريفية، أو الصحراوية، أو البحرية أو غيرها من البيئات تفرض نمطا سلوكيا محددا لأفراد المجتمع الذي يعيش في هذه الدائرة البيئة والتي تتشكل من خلالها ثقافته المميزة عن الآخرين. فالسلوك الإنساني هو نشاط محدد ممكن أن يأخذ جانبا مادياً مرتبط بالأدوات التكنولوجية والمصنوعات والابتكارات، أو غير مادي مرتبط بالفكر والمعتقدات والأفكار وغيرها.

ويمكن تحديد الأنشطة التي يقوم بها الإنسان في المحيط الثقافي الذي يعيش فيه على النحو الآتي:(William, 1958)

1- النشاط التكنولوجي: وهي تضم أساليب "السلوك" التي بواسطتها يستغل الإنسان الموارد الطبيعية للحصول على الطعام ولتصنيع الأدوات، والأسلحة، والملابس، والمساكن، والأواني، والمصنوعات المادية الأخرى اللازمة لحياتهم.

2- النشاط الاقتصادي: ويتضمن أنماط السلوك التي تنظم المجتمع فيما يتعلق بإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات.

3- التنظيم الاجتماعي: ويتضمن أساليب السلوك التي تحافظ على العلاقات الاجتماعية فيما بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع.

4- النشاط الديني: وهي أنماط السلوك المتعلقة بعلاقات الإنسان مع المعتقدات، والطقوس، والشعائر.

5- الأنساق الرمزية: وهي السلوكيات المتعلقة باكتساب المعرفة وتنظيمها ونقلها للآخرين. وتعد اللغة من أهم هذه الأنساق الرمزية على الإطلاق.

هذه الأنماط السلوكية، والتي تعبر عن المناشط الإنسانية، هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الثقافة"، والتي من الممكن تعريفها على أنها الكل المعقد والمركب من المعتقدات والقوانين والعادات والنظم الاجتماعية والأساليب التكنولوجية كما أشار إليها تايلر (1871) Taylor في تعريفه الشهير.

وقبل البحث في موضوع الثقافة، فإن هناك أمران هامان يجب التأكيد عليهما أولا. الأمر الأول يتمثل في حقيقة اختلاف الثقافة وتنوعها بقيمها وسلوكياتها ومعاييرها من مجتمع إلى آخر. وما نقصده بالاختلاف والتنوع هي تلك السلوكيات والمناشط التي تجعل من تمايز الثقافات أمرا هاما. إن الفعل الاجتماعي وما يرتبط فيه من ردود أفعال، والمسالك الإنسانية البحتة، بما في ذلك عادات الأكل واللبس والمسكن، تختلف باختلاف الثقافة وموقعها الجغرافي، وهذا أمر طبيعي جدا، نظرا لتشكل الثقافات وفق ظروف وأحداث تاريخية خاصة بكل جماعة إنسانية معينة.

فلو أخذنا على سبيل المثال المنطقة العربية لوجدنا أن عادات الملبس والمسكن والطعام تختلف اختلافا قد يكون جذريا في بعض الأحيان رغم انتماء ثقافات المنطقة إلى الثقافة العربية-الإسلامية. ناهيك عن الفروق الكبيرة بين ثقافات المنطقة العربية وغيرها من الثقافات الأخرى كالأوربية أو الأفريقية أو الشرق-أسيوية. على سبيل المثال ،، بينما يسمح مجتمع "التودا" في شمال الهند للنساء بالزواج بأكثر من رجل ،، نجد أن المجتمعات الإسلامية تحرم على المرأة ذلك وتسمح ، بنفس الوقت ، للرجل بأن يأخذ لنفسه أكثر من زوجة..

الأمر الآخر يتمثل في تجريد السلوكيات الثقافية كالطقوس الدينية، أو الأدوات، أو الأفعال الاجتماعية اليومية. ومن هذا المنطلق نجد أن الأنثروبولوجيين يدرسون الأفعال الإنسانية

المتعددة لا كمجرد عناصر سلوكية منعزلة، وإنما بسبب ما تلقيه من ضوء على الأساليب التي يتعلم من خلالها الأفراد كيف يسلكون طريقة الحياة في المجتمعات التي يعيشون فيها .. وتتميز دراسة جميع الجوانب المادية وغير المادية في أنها تمنحنا فكرة عامة ومجردة عن ثقافة المجتمع المدروس ..

الخصائص العامة للثقافة:

هناك مجموعة من الخصائص للثقافة. تتميز جميع الثقافات الإنسانية في احتوائها على خصائص عدة .. ومن أهم هذه الخصائص نذكر الآتي:

1 – الثقافة العامة والثقافة الفرعية:

كل مجتمع إنساني يتميز بأن له ثقافته الخاصة به التي تختلف، جزئيا أو جذريا، عن ثقافة المجتمعات الإنسانية الأخرى. ولكن هذا لا يعني أن ثقافة المجتمع الواحد متطابقة في سلوكياتها ونزعاتها وقيمها بين جميع أفراد هذا المجتمع، لأن ثقافة المجتمع نفسها قد تحتوي على العديد من الثقافات المختلفة نوعيا في سلوكياتها من الواحدة للأخرى.

وهذا ما نشهده في المجتمعات الحضرية المعاصرة والتي يتميز مجتمع إنساني فيها بثقافة عامة وثقافات فرعية متعددة. فالثقافة العامة تعكس السلوكيات والقيم والنزعات الاجتماعية المتفق عليها بين جميع الجماعات الاجتماعية في المجتمع الواحد، إذ أن هذه الثقافة هي التي تعكس، وبصورة واضحة، الملامح المادية وغير المادية للمجتمع.

فأفراد هذا المجتمع يتفقون بصورة عامة على العديد من السلوكيات التي تميزهم عن المجتمعات الإنسانية الأخرى. من ناحية أخرى يتوزع أفراد هذا المجتمع في انتماءاتهم إلى ثقافات فرعية داخل المجتمع. هذه الثقافات الفرعية تختلف عن بعضها البعض بسبب الفروق الطبقية أو القبيلة أو الدينية – المذهبية .

ويعتبر توزع ثقافة المجتمع الواحد إلى ثقافتين فرعية وعامة أمرا قديما بقدم المجتمعات الإنسانية نفسها. فمجتمع الكتشوا الكبير، والذي كان قائما في بيرو في العصور القديمة، كان يملك ثقافة عامة ذات سمات ثقافية خاصة به تميزه عن باقي المجتمعات الإنسانية، إلا أن ضمن هذا المجتمع توجد ثلاثة طبقات رئيسية تشكل كل منها ثقافة فرعية تميزها عن الثقافات الفرعية الأخرى الموجودة في مجتمع الكتشوا ..

فطبقة الانكا كانت تشكل ثقافة فرعية خاصة بالطبقة الأرستقراطية، والتي تتكون من عائلات ترتبط بأسرة الإمبراطور عن طريق علاقات الدم والنسب والمصالح المشتركة .. أما الطبقة الثانية فهي طبقة الكوراكا، والتي يشكل أفرادها ثقافة فرعية تتميز بقدر أقل من ثقافة طبقة الانكا.. تلي ذلك، وفي قاع السلم الاجتماعي، طبقة عريضة من عامة الشعب تسمى بطبقة البيوريك، والتي هي –أيضا– تشكل ثقافة فرعية خاصة بأفرادها ..

وتتضح الفروق الثقافية الفرعية فيما بين هذه الطبقات بشكل كبير وجلي .. ولو ركزنا فقط على الاختلاف في الملبس سنجد أن أفراد طبقة الانكا يرتدون أرقى المنسوجات، ويتزينون بالذهب والفضة وريش الطيور والأحجار الكريمة المصنوعة على شكل رموز أو شعارات تدل على طبقتهم ومكانتهم الاجتماعية ،، بينما ملابس وحلي أفراد طبقة الكوراكا كانت أقل دقة وجمالا، إذ كان مسموح لهم ارتداء الحرير فقط دون الذهب، أما عامة الشعب فلم يكن بوسعهم إلا أن يرتدوا الملابس المصنوعة من الصوف، وكان محظورا عليهم استخدام الحلي كافة.

ونأخذ مثالا على المجتمع الكويتي. فالمجتمع الكويتي، على سبيل المثال، يتميز بثقافة عامة يتفق عليها جميع الكويتيون. هذه الثقافة العامة مستمدة من القيم العربية والإسلامية التي ينتمي لها جميعا هؤلاء الأفراد. فأكل مال اليتيم، على سبيل المثال يعتبر عملا محرما، وهذا التحريم يعكس سمة ثقافية عامة في المجتمع الكويتي. في الوقت نفسه، ينقسم الكويتيون إلى ثقافات فرعية مختلفة تؤكد كل منها على سلوكيات محددة وقيما اجتماعية معينة. فهناك الثقافة الطبقية، والثقافة القبلية، والثقافة المذهبية، وكل منها لها صفاتها ومميزاتها التي تختلف بها عن الثقافات الفرعية الأخرى. فهم يختلفون عن الآخرين في إطارهم الثقافي الفرعي، ويتميزون بخصائص ثقافية مدركة لديهم تفصلهم عن الثقافات الفرعية الأخرى، ولكن من جانب آخر، وفي إطار الكلية هم متشابهون بنظام قيمي سلوكي واحد. فيجتمعون بذلك تحت إطار ثقافي عام ومحدد يجمع هذه الثقافات والتي يستطيع المنتمي إلى ثقافة أخرى أن يميزهم بأنهم كويتيون بغض النظر عن اختلافاتهم الفرعية التي تحملها ثقافاتهم المحددة.

2– أنماط الثقافة :

يشير مصطلح " نمط " إلى أسلوب معين من أساليب السلوك. هذا النمط، مثله مثل الأنماط السلوكية الأخرى، يلعب دورا هاما في تكوين ثقافة المجتمع. وتتميز الأنماط الثقافية باختلافاتها الجزئية والجذرية من مجتمع إلى آخر. وهي في إطارها الكلي قد تميز مجتمعا عن آخر. فنمط

خطبة الزواج، على سبيل المثال، في المجتمع العربي المسلم يختلف، وبصورة واضحة، عن نمط الخطبة في المجتمعات الغربية المسيحية .

ولكن ما يجب أن ننتبه له هو أن النمط الثقافي، والذي قد يفتخر به أفراد ثقافة ما، غير مؤثر على أرض الواقع، ولعل هذا ما دفع الأنثروبولوجيين إلى التفريق بين النمط الثقافي "المثالي" والنمط الثقافي "الواقعي"، بعبارة أخرى بين "يقال" وما "يفعل". فليس كل ما "يقال" من قبل أفراد ثقافة ما هو ما "يقع" على أرض الواقع، وهنا وجب علينا تجنب مسألة تعميم النمط السلوكي على جميع أو بعض تصرفات أفراد ذلك المجتمع. فالعادات الشخصية والأساليب السلوكية الخاصة تختلف من فرد إلى آخر. فنحن في حياتنا اليومية نصادف نوعا من التباين في سلوكيات أفراد المجتمع الواحد اتجاه فعل محدد أو حادثة اجتماعية معينة، ولهذا فانه من الخطأ الاعتقاد بأن أي ثقافة من الثقافات تحدد نفس السلوك لكل فرد من أفرادها ..

على سبيل المثال، نجد أن ثقافة المجتمع الموريتاني، ورغم أنه مجتمع أبوي، تحرم على الزوج أن يتحدث أو يقابل أو يجالس والد زوجته طالما أنه حي يرزق، ويفتخر أبناء موريتانيا بهذا السلوك على أنه عيب على الرجل أن يكون على علاقة بالرجل الذي تزوج ابنته. وإذا كان هناك عدد كبير من الرجال من يفعل ذلك، فإنه، وفي الواقع، هناك أزواج يجالسون آباء زوجاتهم بشكل طبيعي ودون شعور بأي عيب أو ذنب من أحد الطرفين.

ولعل هذا الأمر يجعلنا نتفق مع ما ذهب إليه الأنثروبولوجي الأمريكي كلاكهون (Kluckhohn, 1951) الذي صنف لأنماط المثالية إلى خمس فئات:

1- أنماطا إلزامية: وذلك عندما لا تتيح الثقافة لأفرادها إلا وسيلة واحدة فقط للاستجابة لمواقف معينة.
2- أنماطا مفضلة: وذلك عندما تتيح الثقافة أو تسمح بأكثر من وسيلة لمواجهة المواقف، ولكن إحداهما تُفضل على الأخرى وتتميز عليها .
3- أنماطا شائعة: وذلك عندما تتيح الثقافة اكثر من نمط سلوكي لمواجهة مواقف معينة وتقر أهميتها جميعا بنفس الدرجة، ولكننا نجد أن إحداها اكثر انتشارا مما عداها ..
4- أنماطا بديلة: وذلك عندما تتيح الثقافة اكثر من أسلوب سلوكي اتجاه موضوع أو موقف محدد، وتقرها جميعا بنفس الدرجة من الأهمية، ولا يوجد بينها أي اختلاف لا من حيث القيمة أو الانتشار.

5- أنماطا محدودة: وذلك عندما يقر المجتمع بعض أساليب السلوك بالنسبة لقطاع معين من أفراد المجتمع، ويحظرها على بقية المجتمع .

3- تكامل الثقافة :

كيف تحقق الثقافة أهداف المجتمع؟ بالطبع لا يمكن لهذا الأمر أن يتحقق لو كانت أجزاء الثقافة متضادة ومتعارضة ولا علاقة لأحدها بالآخر.

إن أهم ما يميز الثقافة في أي مجتمع إنساني هو أنها ثقافة تكاملية. بمعنى أن جميع عناصر الثقافة في المجتمع هي مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض وتشكل، بالتالي، نسيجا واحدا يضفي على المجتمع شكلا ثقافيا معينا يميزه عن سواه. إن أجزاء الثقافة بكافتها، سواء من سلوكيات أو انماط أو علاقات، تشكل في مجملها انساقا ترتبط أجزاؤها – أو أنشطتها – ببعضها البعض ارتباطا مباشرا أو غير مباشرا، كما إن بعضها يؤثر على البعض الأخر

ففي دراسته للتنظيم الاجتماعي عند شعوب الإندمان، وجد الأنثروبولوجي البريطاني راد كليف براون (1948) Radcliff-Brown إن كل عنصر ثقافي من عناصر النسق الاجتماعي يساهم في تعزيز دور كل عنصر آخر، وبالتالي يساهم في تحقيق الأداء الوظيفي للتنظيم الاجتماعي العام. فالطقوس الجنائزية، على سبيل المثال، ليست مجرد جزء من عملية الدفن أو تعبير عن الحزن فحسب، ولكنه يعبر – وبصورة مهمة – عن تضامن الجماعة ويدعمه. ويرى راد كليف براون أن عملية الترابط والتداخل فيما بين عناصر الثقافة، وأداء كل منها لوظائفها أداء كاملا وبدون صراع مع العناصر الأخرى، هو الذي يخلق توازن المجتمع واستمراريته، كما يجنبه الاختلال والانهيار .

كذلك في دراسته لشعوب جزر التروبرياند، نظر الأنثروبولوجي مالينوفيسكي Malinowski (1915) إلى الثقافة بوصفها وسيلة لإشباع احتياجات الإنسان الأساسية أو غير الأساسية، وباعتبارها مرتبطة بالسمات البيولوجية والنفسية عند الإنسان، كاشفا عن كيفية الارتباط بين شتى عناصر الثقافة في ذلك المجتمع .

أما الأنثروبولوجية روث بندكت Benedict 1974 قد أكدت – أيضا – على أن كل ثقافة إنسانية تتميز بسلوكيات متعددة، ولكن ترتبط هذه السلوكيات مع بعضها البعض لتؤكد على نوعية النمط الثقافي للمجتمع من ناحية، ولتميزه عن الأنماط الثقافية الموجودة في المجتمعات الإنسانية من ناحية أخرى .. وترى بندكت أن هذه العلاقات المترابطة فيما بين السلوكيات هي

التي تحقق الأهداف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمعات الإنسانية .. ولهذا السبب، تصف بندكت الثقافات الإنسانية، والتي تستطيع إقناع كل أو معظم أساليب سلوكيات أفرادها لتحقيق هذه الأهداف، بأنها ثقافات تكاملية. فقد انطلقت المدرستين الأنثروبولوجيتين والمتمثلة في مدرسة الثقافة والشخصية، والمدرسة الوظيفية لتعزز من مفهوم التكاملية للثقافة. فتكامل العناصر الثقافية وأدائها لوظائف محددة، وكذلك ترابط السلوكيات لتحقيق أهداف اجتماعية في المجتمع هي من أبرز ما يحدد تكاملية الثقافة.

4- الثقافة كأداة للتكيف:

قدرة الثقافة، مهما كانت بسيطة أو معقدة، تتمثل، وفي الدرجة الاولي، في تمكين الناس من إشباع احتياجاتهم الأساسية كالغذاء والمسكن، واحتياجاتهم الاجتماعية كالزواج والقرابة، واحتياجاتهم النفسية من عاطفة وأمان وسعادة، وكذلك احتياجاتهم الاقتصادية من عمل وانتاج .. ولكن قدرة الثقافة ترتبط، وبصورة وثيقة، بالطبيعة الاجتماعية والبيئية والاقتصادية للمجتمع نفسه، ولعل هذا ما يدعم حقيقة أن عملية التكيف تختلف من مجتمع لآخر .

وتتضح أهم عمليات التكيف الثقافي في حالة مواجهة التغير الاجتماعي والثقافي، والتي تحقق للمجتمع درجة عالية من البقاء.

ودائما ما تطرأ التغيرات على الثقافة الإنسانية من خلال أحد السبل الآتية:

1- عندما تضاف عناصر ثقافية جديدة، أو تتحسن بعض العناصر الثقافية القديمة عن طريق الاختراع ..
2- عند استعارة عناصر ثقافية جديدة من مجتمعات مجاورة ..
3- عندما تُهجر بعض العناصر الثقافية غير الملائمة للبيئة، أو تُستبدل بعناصر أفضل منها ..
4- عندما تضمحل بعض العناصر الثقافية بسبب الإخفاق في نقلها من جيل إلى جيل آخر.

5- الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية :

ما يميز انماط الثقافة هو أن لها بعدين: ظاهري وضمني. والنمط الثقافي الظاهر هو الذي يتضح من خلال السلوك الواقعي ويستطيع أفراد المجتمع التعبير عنه تعبيرا لفضيا يسيرا. أما الثقافة الضمنية فهي التي تكون ضمنية أو متضمنة في السلوك، ولا يمكن الكشف عنها ومعرفتها إلا من خلال التحليل المركز لأنماط الثقافة التي تحملها أو تعبر عنها .. وكثيرا ما يشعر أبناء ثقافة محددة إنه يصعب عليهم التعبير عن الجانب الضمني لثقافتهم تعبيراً لفظيا. والحقيقة أن الثقافة الضمنية تمارس تأثيرها على المستوى اللاشعوري (اللاوعي) إلى حد كبير.

ويمكن عرض المثال الآتي لتوضيح هذه القضية. فمن المعروف أن الزواج من ابنة العم هو من أنماط السلوك الشائعة في المجتمعات العربية، وهذا النوع من الزواج يمثل نمطا ثقافيا ظاهريا، لأنه يتضح من خلال سلوكيات الزواج، كما أنه يمكن أن يُعبر عن هذا النمط الظاهر لفظيا بالقول "إن ابن العم له الحق في ابنه عمه"، أو في قول الرجل بأنه "سيتزوج" أو إنه "متزوج من ابنة عمه" والحقيقة التي يجهلها الكثير هنا، هو أن أغلبية الذين يتزوجون من بنات العمومة لا يكونون واعين عن الجوانب الضمنية لعملية الزواج هذه .. وحتى نفهم الثقافة الضمنية لنمط زواج أبناء وبنات العمومة ،، فيجب علينا أن نبحث عن المسببات التي تختفي خلف هذه الظاهرة، والتي لا تكون واضحة للأفراد الذين يمارسونها .. ومن الممكن الكشف عن البعد الخفي (الضمني) لهذه الظاهرة من خلال فحص النمط الثقافي الظاهر وربطة بعمليات اجتماعية أخرى مثل توزيع الميراث وأنساق القرابة والسياسية والثروة، والتي كلها مسببات خفية أو ضمنية تلعب دورا هاما في التأكيد على نمط زواج الأقارب ..

وقد أبرز Bittles (1995) أهم العوامل التي تجعل من هذا الزواج مفضلاً وممارساً في هذه المجتمعات والثقافات والتي تمثلت بالآتي: (1)- الحفاظ على الوحدة القرابية التقليدية ؛ (2) تقوية الروابط العائلية والحفاظ على بناء الأسرة ؛ (3) الحفاظ على الثروة داخل نطاق العائلة ؛ (4) سهولة التنظيم والترتيبات الخاصة بالزواج ؛ (5) العلاقة بين الزوجة ووالدة الزوج تكون أفضـل ؛ (6) المحافظة على الاستقرار الزواجي والتقليل من حدة الطلاق.

6- اكتساب الثقافات بالتعليم:

الثقافة وما يرتبط بها من معايير وقيم وسلوكيات دائما ما تكتسب عن طريق التعليم، سواء التعليم الشفاهي أو المكتوب، الرسمي أو غير الرسمي. إن نشوء الثقافة وارتقائها ما كان له أن يتم لولا

انتقاله عن طريق التعلم. إن الفرد يتعلم القدر الأكبر من ثقافته من خلال أفراد الجماعة التي ينتمي لها، والذين تعلموا بدورهم سلوكهم الثقافي عن الآخرين الذين سبقوهم والذين يكبرونهم سنا.

إن الثقافة بطبيعتها تربط بين الأجيال جميعاً: فهي لا تربط بين أفراد الجيل الحي فقط ،، وإنما تربط بينهم وبين الجيل السابق، وبين الجيل الحالي والأجيال التي لم تولد بعد، والتي سوف ينتقل إليها القدر الأكبر من هذا السلوك المتعلم. فنحن نتعلم كيف نتكلم ونفكر ونتصرف من خلال البيئة الاجتماعية الثقافية التي نعيش بها، ومتى ما اختلفت أو تغيرت هذه البيئة الاجتماعية الثقافية، تغيرت عاداتنا في الكلام والتفكير والسلوك. فالأطفال لا يكونون مزودون عند الميلاد بأساليب سلوكية من صنع الجينات الوراثية، وإنما هم يكتسبون هذه الأساليب من خلال نموهم في المجتمع، وكنتيجة لعملية تعلم طويلة ومعقدة .

7- دور السلوك الرمزي في الثقافة:

إن السلوك البشري بكافة أنواعه ينشأ عن استخدام الرموز .. فعن طريق استخدام الرموز نشأت الثقافات الإنسانية واستمرت بالتطور .. فالرمز هو الذي يحول الطفل إلى كائن بشري مكتمل. والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها هو أن أنواع السلوك البشري كافة تتكون من استخدام الرموز، أو تعتمد على استخدام الرموز. فالسلوك البشري سلوك رمزي، والسلوك الرمزي سلوك بشري وحتى نفهم الدور الذي يلعبه السلوك الرمزي في نشأة الثقافة واستمرارها، فلا بد أن نكون على بينة من طبيعة الرموز نفسها. ويمكن تعريف الرموز بأنه ظاهرة مادية (مثل شيء ما، أو منتج مادي، أو مجموعة من الأصوات) يضفي عليها مستخدموها معناً معينا.. ويكون هذا المعنى جزافيًا، أي أنه لا توجد علاقة حتمية لازمة بينه وبين الخصائص المادية للظاهرة التي يعبر عنها. على سبيل المثال، لا توجد علاقة لازمة بين الخصائص المادية للحجاب والقيم الرمزية التي يضفيها المسلمون عليه. ولا يستطيع الشخص غير المسلم الذي لا يعرف هذه القيم الرمزية أن يكتشفها من خلال ملاحظته للحجاب نفسه، وإنما يتعين إخباره بها أو يمكنه استنتاجها من خلال ملاحظة سلوك المسلمين إزاء الحجاب. ونجد، وبنفس الطريقة، أن معني أي رمز لغوي، مثل كلمة حصان، لا يرتبط ارتباطا ماديا بتتابع الأصوات التي تكون الكلمة. بمعنى آخر، ليس هناك شيء "حصاني" في كلمة حصان ،، إنما المجتمع الذي يستخدم هذه الكلمة هو الذي يضفي عليها معناها الخاص ..

ويستخدم البشر، وبصورة مكثفة، الرمز، لهذا فهم دائما ما يضيفون معاني مختلفة على جميع الظواهر المادية في مجتمعاتهم. فنجد، على سبيل المثال، أن اللون الأحمر قد يدل على الخطر، أو يكون إشارة للوقوف عند تقاطع معين ،، كما إنه قد يستخدم شعارا لحزب سياسي ،، وهكذا .

8- الوحدة والتنوع في الثقافة :

مما سبق لاحظنا أن هناك اختلافات وتنوعات، أحيانا كبيرة وأحيانا صغيرة، فيما بين الثقافات الإنسانية المتعددة. كما أكدنا على أن كل مجتمع، وحسب ظروفه الخاصة، استطاع أن يصيغ مجموعة من أنماط السلوك الخاصة به، والتي تختلف عن السلوك في أي مجتمع آخر

ورغم هذا التنوع الثقافي إلا أنه يمكننا القول أن هناك "وحدة وظيفية" في كل الثقافات الانسانية والتي تتمثل في تحقيق أهداف المجتمع. فجميع الثقافات الإنسانية تهدف دائما إلى إشباع الاحتياجات الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية لأفرادها. ومتى ما عجزت ثقافة أي مجتمع إنساني عن تحقيق هذا الهدف، فأن هذا المجتمع سوف يتوقف عن الحياة وسينهار. ونخلص من هذا الكلام أن هناك وحدة واضحة فيما بين الثقافات المختلفة، وهذه الوحدة تكمن في تحقيق الأهداف الاجتماعية المختلفة. ويكمن التنوع فيما بين الثقافات في نوعية السبل التي يختارها كل مجتمع لتحقيق تلك الأهداف .

9- واقعية الثقافة:

هل الثقافة عبارة عن حالة تجريدية متمثلة في الذهن البشري ... أم إنها واقعية؟ يبدو أن هذا السؤال قد شغل الأنثروبولوجيين لسنوات طويلة، إذ أن منهم من يؤيد واقعية الثقافية، ومنهم من يعارضها.

وحقيقة لا يمكننا أن نشكك بواقعية الثقافة حتى وإن كان مقرها في الذهن البشري، لأن واقعية الثقافة تتمثل في قدرتها، على سبيل المثال، على "العقاب أو الثواب"، فمن ينحرف عن السلوكيات المقررة ثقافيا قد يقتل أو يسجن أو يطرد، ومن يلتزم بها فسوف يكافئ.

في السنوات الأخيرة، تبنى الكثير الأنثروبولوجيين رأي العالم الفرنسي أميل دوركهايم القائل بأن الظواهر الاجتماعية واقعية فعلا، وأنه يمكن دراستها "كأشياء" بنفس الطريقة التي تدرس بها الأشياء المدركة موضوعيا ومادياً. فالظواهر الاجتماعية تؤثر في بعضها البعض، كما تؤثر في

السلوك الاجتماعي في المجتمع، ولذلك فهي تخضع لقوانين اجتماعية عامة. وقد أخذ العديد من الأنثروبولوجيين بجوهر هذه الفكرة، والذين أحلوا الظواهر الثقافية محل الظواهر الاجتماعية. أما البعض الآخر، فيرى أن الثقافة لا وجود لها إلا في العقل البشرى، وأن الأفراد يستطيعون التصرف بمفردهم. ولقد أخذ هذا الرأي صورة متطرفة عندما قال أتباعه بأن دراسة الثقافة في ذاتها ليس لها ما يبررها، وإنما الممكن هو دراسة الأفراد فقط.. وبذلك تصبح الانثروبولوجيا مجرد شكل من أشكال علم النفس.

مشهد انثروبولوجي ثقافي

عادات الشعوب وتقاليـدهم في دفن الموتـى

هناك شعوب عدة متوسطية اعتقدت بحياة أبدية خفية بعد الموت وهذا ما جعل، تلك الشعوب تهتم كثيرا بحماية هذه الحياة وتأمين الجثة في وضعية سكينة وهدوء، ودفنها أحيانا داخل المنزل، واعتقد الرومان من جهتهم ان المشاعل الموقدة في المدفن تقود روح المتوفى، الى مقرها الأبدي، وأتت الكلمة الانجليزية فيونيرال (Fumeral) التي تعني، جنازة في العربية من الأصل اللاتيني فيونوس (Fumus) أي المشعل، وظهرت عادة إضاءة الشموع في المآتم عند الرومان إذ اعتقدوا ان الشموع المضاءة، حول الجثمان كانت تبعد الأرواح المتعطشة لإحياء واستبعادها ولكونهم يؤمنون، بأن الأرواح تحب الظلام وتكره النور فكانوا يشعلون الشموع حول الجثمان، فسبب الخوف، من عالم الأرواح ظهور إحدى التقاليد التي لاتزال سائدة حتى اليوم في الجنازات

ومازالت بعض القبائل في استراليا تعيش حياة بدائية ومنها قبيلة تيوي التي تسكن الشواطئ الشمالية، حيث يعمد أفراد القبيلة الى حفظ روح الميت خوفا من ان تذهب الى أحد اصدقائه وتسبب له الموت فيقوم زعيم القبيلة بكسر رجلي الميت قبل الدفن وبعد مرور اسبوع على دفن الميت يعمد ذووه الى إقامة أعمدة خشبية حول الضريح يبلغ طول كل منها اربعة أمتار ثم يدهنونها بألوان متباينة ترمز الى حياة الفقيد

أما إذا كان المتوفي امرأة، فيعمدون الى تزيين القبر بريش الوز والبط، ومما يثير العجب في طريقة دفن الميت لدى هذه القبيلة ان الرجال والنساء يرقصون، وهم عراة على السواء كما يرتدي بعضهم جلود نمور واسود ويمكثون ثلاثة أيام دون طعام، الى ان يقدم زعيم القبيلة طعاما هو

عبارة عن خبز جاف ويجب على كل من يأكله، ألا يستعمل يديه والا تعرض للعقاب حيث تتغلغل الروح الشريرة في روحه وجسده

حرق الميت

وتعود عادة حرق الميت التي عملت بها شعوب عدة قديما ومازال يعمل بها لدى شعوب

معاصرة الى معتقدات شمسية، وتدل عادة احراق الميت حتى الترميد /تحويله الى رماد/ الى الاعتقاد بخلود الروح وهو معتقد يتعارض مع طقس دفن الميت في الأرض، ويعتقد هؤلاء ان للنار ناحية تطهرية باعتبارها طلقة سماوية مشعة ترتبط بالنجوم والشمس المضيئة

الدفن

دفن الموتى هو الحل الأقدم والأمثل للتخلص من جثث الأحباب(!!).. ولكن حتى هذا الحق البسيط أصبح صعب المنال في بعض الدول؛ ففي الدول الضيقة كاليابان وهونج كونج ومكاو ارتفعت أسعار الأراضي وتلاصقت المباني لدرجة أصبح دفن الموتى مشكلة قومية .

مما فاقم الأمر سوءاً أن المقابر في الدول غير الإسلامية تعتبر (ذات استعمال واحد) حين تمتلئ يتم البحث عن غيرها ولا يعاد استخدامها.. وقد تعرضت لهذه المشكلة بالتفصيل في مقال قديم يدعى "الأموات يزاحمون الأحياء.."

أضف لذلك أن لوازم الدفن في غلاء مستمر.. وظهرت للوجود مقابر خمسة نجوم وأربعة وثلاثة.. كل حسب ثروته وقدرته على الدفع!!

كل هذه الصعوبات ساهمت في ظهور أفكار جديدة تستغني عن طريقة الدفن تماماً وتقدم خدمات جديدة للتخلص من جثث الموتى

طرق مبتكره للتخلص من الاموات

ففي إيطاليا مثلاً بادرت مؤسسة للدفن في مدينة "كانتانيا" إلى تقديم خدمة مجانية تعتمد على إلقاء جثة الميت في فوهة بركان "إتنا" في حفل جنائزي مهيب يحضره القس وأعيان المدينة وتسدد تكاليفه من خلال رسوم يدفعها متفرجون رعاع..

وإحراق الموتى بالمناسبة عادة هندوسية قديمة أصبحت شائعة في مناطق عديدة حول العالم وتستعملها الجيوش الغربية (بإذن خاص) للتخلص من جثث الجنود وإعادتها لذويهم في "قنائن خضراء!!"

أما رمي الموتى في البحار والأنهار فطريقة أعيد إحياؤها في روسيا وإسبانيا والفلبين.. وتعتمدها جيوش البحرية للتخلص من "تراكم" جنودها البواسل.

وقبل عامين تقريباً اقترح أحد نواب البرلمان الكيني السماح للضباع بدخول المقابر والمستشفيات لالتهام جثث الموتى.. فالحرب الأهلية هناك جعلت الجثث من المناظر المألوفة في الطرقات، وغدا دفن آلاف الموتى عبئاً لا تقدر عليه الحكومة.. أما السماح للضباع بالقيام بهذا الدور فهو (حسب رأي النائب جاميني كوكو) أفضل الطرق للتخلص من الجثث بأسلوب صحي يمنع انتشار الأوبئة!!

وفي سبعينيات القرن الماضي ظهرت صرعة تجليد الموتى أملاً في إعادتهم للحياة (بعد قرن أو اثنين) حين يصبح الطب أكثر تقدماً.. وظهرت أول تلك الشركات في كاليفورنيا قبل أن تنتشر في عشر ولايات أخر ثم إلى ألمانيا وفرنسا .

وحالياً يوجد في أمريكا أكثر من 49 جسداً مجلداً، من أشهرها جثمان رجل الأعمال المعروف "والت ديزني" (وإن كان ورثته طالبوا مؤخراً بإخراجه من كبسولة الجليد ودفنه بالطريقة العادية .(

ومن "شيكاغو" سمع أحد الحانوتية بعزم الكونجرس على إجازة قانون القتل الرحيم فقرر المبادرة بتقديم خدماته بطرق رومانسية لطيفة.. وقانون القتل الرحيم (المجاز في دول عديدة مثل هولندا) يسمح بإنهاء حياة المرضى الميؤوس منهم بموافقتهم؛ وبناء عليه قام المدعو "تشارلز كارينتينو" بتأسيس شركة تدعى "الخروج النهائي" تقدم خدمات الموت الرحيم (حسب الرغبة) مع تعهدها بعدم شعور الميت بأي آلام ..(!!)

ومن الخدمات الأخرى التي أعلن عنها "كارينتينو" عزف الموسيقى المفضلة عند الاحتضار، وتسجيل الوصية على شريط فيديو، واستئجار بعض المشاهير لحضور مراسم الدفن!

أما أكثر الطرق تقدماً للتخلص من الموتى فقرأت عنها في جريدة الشرق الأوسط قبل فترة يسيرة حول شركة في "تكساس" تقوم بذر رماد المتوفين في الفضاء الخارجي بواسطة حاوية يتم

استئجارها على متن المكوك الفضائي.. ورغم غلاء وغرابة هذه الطريقة يوجد حالياً على قائمة الانتظار أكثر من 40 ألف شخص !!

ـــــــــــــــ انتهـــــــى ـــــــــــــــ

مع التمنيات بالنجاح

د. عبير سرور